هوامش

بات الأطفال في الصين أكثر ابتعاداً عن الطبيعة في المدن في ظل الابتعاد عن الأرياف وإدمان التكنولوجيا، إلى درجة باتوا ينفرون من قضاء الوقت في الطبيعة

قلة هم الأطفال الذين يقضون أوقاتاً في الطبيعة (لونغ وانغ/ Getty)

نفور من الطبيعة

أطفال الصين يدمنون التكنولوجيا

بكين ـ **علي أبو مريحيل**

باختصار

نادراً ما تتاح للأطفال فرصة اللعب في الخارج، ومن ثم يقضون معظم وقتهم في المدرسة، أو الدروس الخصوصية بعد الدوام، فضلاً عن إدمان ألعاب الفيديو والأجهزة الذكية

■■■

شهد الريف الصيني خلال العقود الثلاثة الماضية، هجرة جماعية نحو المدن والمناطق الحضرية، وشمل ذلك هجرة الطلاب وأولياء أمورهم إلى البلدات المجاورة بحثاً عن فرص تعليم وعمل أفضل

أدّى التوسع الحضري في الصين والنزوح الجماعي من الريف إلى المدينة، وإدمان الشاشات الذكية والهواتف المحمولة، إلى خلق جيل يفتقر إلى الوعي بالطبيعة، وهو أمر طرح تساؤلات في الأوساط الاجتماعية عن مستقبل الجيل الجديد وعلاقته بالبيئة المحيطة به. ويقول خبراء إن الاعتماد المتزايد على الأجهزة الإلكترونية، والضغوط الأكاديمية واللامنهجية، لا يترك سوى القليل من الوقت للأطفال الصينيين للمشاركة في الأنشطة الخارجية أو التواصل مع الطبيعة. ويلفت هؤلاء إلى أن دروس العلوم الطبيعية المبنية على الكتب المدرسية في معظم المدارس العامة في الصين تدفع الأطفال بعيداً عن الطبيعة. وخلال العقود الماضية، شهدت الصين أسرع عملية تحضر في تاريخ البشرية. ووفقاً لأرقام صادرة عن المركز الوطني للإحصاء في البلاد، ارتفع عدد سكان المناطق الحضرية في الصين من 170 مليوناً خلال حقبة الإصلاح والانفتاح في سبعينيات القرن الماضي، إلى 922 مليوناً بحلول عام 2023، ما يمثل أكثر من 60% من إجمالي السكان.

وبحسب المصدر نفسه، فإن الأطفال الذين يولدون وينشؤون في المدن هم من سكان المناطق الحضرية. وعلى الرغم من وجود الحدائق والمساحات الخضراء العامة في المدن، يقضون معظم وقتهم في بيئات صناعية لا توفر أدنى متطلبات الحياة الصحية في الطبيعة. وقبل عامين، أصدرت جامعة بكين دراسة بعنوان «فحص جودة التعليم الإقليمي»، استعرضت فيها سبع سنوات من البيانات التي جمعت من أكثر من أربعة آلاف مدرسة ابتدائية ومتوسطة وثانوية في جميع أنحاء الصين، وخلصت نتائج الدراسة إلى أن الاعتماد على الهواتف الذكية، والدروس الخصوصية المفرطة بعد المدرسة، والحرمان من النوم، كلها عوامل تؤدي بصورة خطيرة إلى تآكل جودة التعليم ونفور الأطفال من الطبيعة.

مسؤولية مشتركة

يقول أستاذ الدراسات الاجتماعية السابق في جامعة «صن يات سن» وي لي فنغ، في حديث لـ «العربي الجديد»، إن هناك مسؤولية كبيرة مشتركة تقع على عاتق الأسرة والمؤسسات التعليمية بشأن نفور الأطفال من الطبيعة، موضحاً أنه غالباً ما يُستشهد بمخاوف السلامة باعتبارها السبب الرئيسي وراء محدودية التعليم في الهواء الطلق في المدارس العامة، ما يجعلها تقدم عدداً قليلاً جداً من دورات التعليم الطبيعي التي تشمل التفاعل خارج جدران المؤسسات التعليمية. كما يلفت إلى أن دروس العلوم الطبيعية المبنية على الكتب المدرسية في معظم المدارس العامة في الصين تدفع الأطفال بعيداً عن العالم الطبيعي. ويقول إنه نادراً ما تتاح للأطفال فرصة اللعب في الخارج، ومن ثم يقضون معظم وقتهم في المدرسة، أو الدروس الخصوصية بعد الدوام، بالإضافة إلى الإدمان على ألعاب الفيديو والأجهزة الذكية. يضيف: «لو أجرينا مقارنة بسيطة سنجد أنه في البلدان المتقدمة، ورغم استمرار التفاوت بين الريف والمناطق الحضرية، فإن التعلم في الطبيعة والاندماج فيها أكثر تكاملاً وحضوراً في المناهج الدراسية، كما أن هناك اهتماماً أكبر بمسألة التعلم التجريبي والنشاط البدني». ويؤكد أن إدماج الأطفال في بيئات طبيعية حقيقية تساعدهم على فهم العلاقة بين الإنسان والبيئة، وتخرجهم من دوامة التكنولوجيا وتداعياتها الخطيرة.

الخوف من الطبيعة

من جهتها، تقول الباحثة في مركز «دونغوان» للإرشاد والتأهيل النفسي، لورا شانغ، في حديث لـ «العربي الجديد»، إن نسبة الخوف من الطبيعة ترتفع بصورة أكبر في المجتمعات الحضرية المتطورة اقتصادياً، مشيرة إلى أن هذا الاتجاه يؤثر سلباً على الصحة البدنية والنفسية لجيل كامل. وتوضح أن الأطفال الذين لا يتفاعلون مع الطبيعة قد يصابون بمشكلات صحية متراكمة ومركبة، مثل السمنة والاكتئاب ونقص الانتباه والقلق والخمول وتراجع المهارات الاجتماعية. في الوقت نفسه، تؤكد أن ضعف القدرة على إدراك العالم من حولنا ليس مرضاً بقدر ما هو جهل بالطبيعة ومكنوناتها، الذي ينطوي على فقدان الاتصال بهذا العالم الخصب، ما يجعل الأطفال أقل تحفزاً إلى استكشاف الحياة الطبيعية وتقديرها، ومع مرور الوقت يصبح ذلك سلوكاً غريزياً. وتعطي أمثلة على أن معظم الأطفال يشعرون بالتوتر في البيئات الطبيعية، ويعربون عن امتعاضهم من ارتفاع درجات الحرارة والرطوبة أثناء جولاتهم الخارجية، وغالباً ما يطلبون العودة بسرعة إلى المنزل للاستمتاع بأجهزة التكييف، أو ممارسة ألعاب الفيديو، أو مشاهدة التلفاز. وحين يشعرون بالإرهاق من السير لمسافات طويلة، يرفضون حتى مجرد الجلوس على العشب لأنهم يعتقدون أنه قذر ومليء بالحشرات وفضلات الكلاب والقطط. وكان خبراء صينيون قد حذروا في وقت سابق من خلو الريف من ناسه. وشهد الريف الصيني خلال العقود الثلاثة الماضية، هجرة جماعية نحو المدن والمناطق الحضرية، وشمل ذلك هجرة الطلاب وأولياء أمورهم إلى البلدات المجاورة بحثاً عن فرص تعليم وعمل أفضل. وجذبت الحكومات المحلية سكان الريف إلى المدن حيث يمكنهم المساهمة في التوسع الحضري والنمو الاقتصادي هناك. وسبّبت موجات الهجرة إغلاق العديد من المدارس في الريف بسبب قلة أعداد الطلاب، ما أدى إلى توسيع الفجوة وتفاقم التفاوت الهيكلي بين الريف والمدن. وبحسب سجلات رسمية، تقلص عدد المدارس الابتدائية في المناطق الريفية بسبب خلوها من الأطفال من حوالي نصف مليون مدرسة عام 2005 إلى 150 ألف مدرسة عام 2020. وانتقدت الحكومة المركزية في العاصمة بكين مراراً الإغلاق غير المعقول للعديد من المدارس في الريف وهجرة السكان، وأعلنت عزمها تنفيذ خطط استراتيجية لمواجهة هذه الأزمة.

وأخيراً

وأُغلق باب الشمس

سعدية مفرح

عندما بدأتُ متابعة مقالاته في مجلة الكرمل، لم أكن أعلم أنني سأبقى أتابع ما يكتبه في عمري كلّه لاحقاً. كنت طالبة في الثانوية، وكانت معلّمة اللغة العربية تزوّدني بكتب ومجلّات تتعلّق بالشأن الفلسطيني تحديداً، لأنّها تعرف شغفي بها، وكان منها أعداد مجلّة الكرمل. أذكر أنّني كنت أنتهي من قراءة العدد بكامله، في يومين، لأعيده إلى معلّمتي في الوقت المُحدَّد، وكان مقال رئيس تحرير المجلّة محمود درويش، ومقال مدير تحريرها إلياس خوري، أكثر ما يعجبني في المجلّة عادةً، حتّى أنّني كنت في بعض المرّات أنسخ المقالَين، أو فقرات منهما، لأعود إليهما لاحقاً. ذلك زمن مضى، وترك فيّ الكثير ممّا يستحيل نسيانه، ترك فلسطين كلمةً وقلباً نابضاً ومقاومةً مستمرّة في كلّ شيء، وترك أسماءَ كثيرةً في ذاكرةٍ مرتبطةٍ بالكلمة الأولى، ومنها اسم إلياس خوري، الذي رحل الأحد الماضي مُخلّفاً أثراً عميقاً لا يُمحى في وجداني. لقد أغلق باب الشمس، الباب الذي عبر منه إلى عوالم سحرية صاخبة كلّ الطرق فيها تُؤدّي إلى فلسطين.

وفيما يشبه التماهي الحيّ، ما بين الكتابة والواقع، وما بين السرد والتاريخ، رحل كاتب «النكبة المستمرّة»، في وقت تستمرّ فيه النكبة فعلاً في أرض فلسطين. فالنكبة، التي ولد إلياس خوري في تخومها الزمنية في العام 1948، ما زالت مستمرّة، لم تنتهِ (ولن تنتهي) مفاعيلها في الأرض وفي الإنسان، وفي الكتابة أيضاً. لقد كتبها خوري دائماً لتصير عنوانه الأوضح، حتّى لا يمكن تصوّره خارج دائرتها التي تتسع حوله سنة بعد سنة، وكلمة بعد كلمة.

وفي تماهٍ زمنيٍّ آخر، رحل خوري في ذكرى مجزرة صبرا وشاتيلا، وهو الذي عاصرها، وكتب عنها في روايته الشهيرة «باب الشمس» (دار الآداب، بيروت، 1998)، التي أرادها توثيقاً إبداعياً حرّاً، ليس على ما حدث لفلسطين في فلسطين وحسب، وإنّما على ما حدث لها خارجها أيضاً. وعلى غزارة الروايات العربية التي تناولت الحدث الفلسطيني بصوره ومراحله المختلفة، تميّزت «باب الشمس» من بينها باعتبارها روايةً ذات بناء سيمفوني مُتعدّد الحركات والمستويات، برع فيه الكاتب باستحضار التاريخ واقعاً حياً من دون أن يحوّل روايته سجلاً تاريخياً، ومن دون أن يتنازل عن سحر الكتابة الروائية، وخيالات الكاتب في رسم شخصياته بحرّية تامة. وهو ما جعل من هذه الرواية مفصلاً حقيقياً من مفاصل ما يسمى «السحرية الواقعية» في الرواية العربية. وعندما تحوّلت «باب الشمس» فيلماً سينمائياً بتوقيع المخرج يسري نصر الله، بالاسم نفسه في العام 2002، لم يجد المشاهد صعوبةً في اقتفاء أثر الرواية كاملاً من خلال مشاهد الفيلم، على العكس ممّا يحدث في كثيرٍ من الروايات الأخرى، التي تتحول أفلاماً سينمائيةً. لقد ظلّت فلسطين في الحالتَين هي العنوان الأبرز من دون أن يتوارى الفنّ خلف الالتزام بالقضية وفق المُتوقَّع.

ولم يكن إلياس خوري كاتباً روائياً مسرحياً أو ناقداً أو محرراً صحافياً وحسب، بل كان قبل هذا وذاك صوتاً عالياً من أصوات التاريخ والجغرافيا، يروي حكايات شعب عانى طويلاً، ويعبّر عن آلامه وآماله من خلال مواقفَ عاشها وعايشها في بيروت، خصوصاً في السبعينّات والثمانينّات، عندما كانت بيروت عاصمةَ القرار الفلسطيني، وأرض نضاله أيضاً.عمل إلياس خوري في الحقل الأكاديمي، بجانب عمله في الصحافة الثقافية في صحف ومجلّات عدّة، فساهم بتشكيل حركة صحافية ثقافية فاعلة في سبعينيّات القرن الماضي وثمانينيّاته وتسعينيّاته. ورغم أنّه أصدر بعض الكتب قبل «باب الشمس»، مثل «رحلة غاندي الصغير»، و«مجمّع الأسوار»، و«أبواب الرحيل»، و«عكا والرحيل»، وغيرها، إلّا أنّه في هذه الرواية كان قد بلغ منتهاه الإبداعي، إذ أدركنا من خلالها أنّ للروايات أبواباً خلفية، تفتح على آفاق التاريخ، وتغمرنا في بحور الجغرافيا، في حركة مستمرّة لا تكتفي بتصوير الحدث التاريخي، بل تنتقده أيضاً، وتجعله في مواجهة الواقع الراهن.

> كان إلياس خوري في «باب الشمس» صوتاً عالياً من أصوات التاريخ والجغرافيا، يروي معاناة شعب وأحلامه

كانت تلك الرواية بمثابة جسر بين الأجيال، تذكّرنا بأنّ الأمل لا يموت، وبأنّ الذاكرة الحيّة تظلّ حاضرةً في كلّ كلمة. وكان خوري يُجسّد روحاً حقيقيةً للإنسان الفلسطيني، رغم لبنانيته، ويعبّر عن معاناته وأحلامه بلغةٍ جمعت ما بين الرهافة والقسوة بدقّة شديدة تعبّر عن شخصية إلياس خوري في كلّ ما كتب قبلها وبعدها. وهو إذ يرحل الآن يبقى الباب مُغلقاً بانتظار من يفتحه لتبزغ شمس فلسطين حرّةً حتماً.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**